رياح التغيير الدافئة
تهب في تركستان الشرقية

بقلم: إس. أندرزويمبوش

عندما سافرت للمرة الأولى في عام 1980م إلى إقليم سنكيانج على حدود الصين الغربية المشهور تاريخيا بتركستان الشرقية لم يكن يوجد هناك إلا القليل من المؤن الغذائية والسيارات القليلة جدا، ولم يكن للبضائع والمؤن المصنعة أي وجود في المستودعات، بل لم يكن هنالك سياسة واضحة من جانب حكومة بكين، إذ كان الغموض يكشف أعمال الكوادر الصينية في معالجتهم لمثل هذه القضايا، لقد كانت الممارسات الإسلامية محظورة في تلك الأثناء ومعظم المساجد ظلت مغلقة.

وعندما عدت إلى المنطقة في أواخر عام 1983م، وجدت فائضا من الأغذية في هذه المرة، ووجدت شبكة مواصلات عامة جيدة وكذا صحوة إسلامية تتفاوت من منطقة إلى أخرى، وجدت أيضا بداية لمشاريع صناعية محلية، كما وجدت السكان المحليين - بالرغم من شكهم الواضح حول النوايا الصينية- شديدي التفاؤل باتجاهات التغيير هذه وحجمها، وفي هذه الزيارة وجدت أيضا عددا من الكوادر المحلية تعمل جنبا إلى جنب مع السلطات الرسمية.

وفي شهر نوفمبر من عام 1986م عندما عدت إلى تركستان الشرقية للمرة الثالثة وجدت أنه من الصعب التعرف على الإقليم التاريخي من عدة وجوه، فالكثير من المدن التي كانت في الماضي طرقًا لتجارة الحرير صارت الآن مفتوحة أمام السياح، والسكان المحليون صاروا ينعمون بقدر من الرخاء الاقتصادي لم يكن متوقعا منذ عدة سنوات، فلقد صارت المتاجر والأسواق الشعبية تمتلئ بالأقمشة التركستانية والفواكه والخضروات واللحوم المنتجة محليا وكذا الأدوات المنزلية وغيرها المصنعة محليا، ويستطيع المرء أن يجد أحدث وأغرب أجهزة المذياع اليابانية، أما الهجين الصيني من المركبات السوفيتية القوية فقد اختلفت لتحل محلها سيارات التويوتا والجيب النتاج المناسب للتزاوج بين التقنيات اليابانية والأمريكية والجهد الصيني، أما المساجد فإنها تكتظ بالمصليين صباحًا ومساءً ويستطيع المرء شراء كتب الثقافة الإسلامية بحرية وتقريبًا في كل مكان.

اهتمامات المسئولين الصينيين

إن اتجاهات التنمية الاقتصادية بما فيه من لا مركزية في الاقتصاد في تركستان الشرقية لن يسر بها كثير من الناس، خاصة وأن الكثير من المسلمين المحليين صاروا قلقين مما يعتبرونه بتهيئة الظروف أمام فيضانات جديدة من المهاجرين الصينيين من الداخل إلى هذا الإقليم، إن الكثير من أبناء تركستان الشرقية يقولون بأن أعداد الصينيين (الهان) المتواجدين في هذه المنطقة يقدرون بضعف الرقم الذي تحدده الإحصائيات الرسمية.

لقد طرحت هذه القضية على المسئولين الصينيين في عام 1983م، فوجدتهم شديدي الحذر والتيقظ لهذه المشكلة ونتائجها ويبحثون عن سبل لمواجهتها مع الإبقاء على خطط التنمية الصناعية في المنطقة، وفي سنة 1986م كانت اهتمامات المسئولين مستمرة إلا أن حيرتهم قد انتهت ففي هذه المرة أخبرت بأن هجرات القبائل الصينية (الهان) من الداخل إلى سنكيانج يجب أن تستمر لأن لديهم مهارات صناعية لا يمكن أن توجد لدى السكان المسلمين المحليين، يقول أحد المسئولين الصينيين عند سؤاله عن وجهة نظره حول هذه الظاهرة: (كل واحد سيستفيد من التطورات التي تحدث في سنكيانج يجب أن ندرك حجم المشكلة، وهذا يعني مزيدًا من هجرات (الهان) وفي ذات الوقت إن تنجح هنا فلا بد من المزيد من الدعم من الداخل، بالإضافة إلى ما سبق فإنه سيكون من غير الممكن دفع عجلة الإنتاج في إقليم سنكيانج بفتح أسواق جمهورية الصين الشعبية أمامه بدون قبول العمالة الصينية في المنطقة.

إن السياسة الصينية في الإقليم تحتاج إلى لباقة ودبلوماسية عالية، وهي صفات طالما افتقر إليها الصينيون في تعاملهم مع تركستان الشرقية في الماضي، يقول أحد الكوادر من أبناء تركستان الشرقية: (إننا نصر على أن يشارك السكان المحليون من أبناء تركستان الشرقية إلى أقصى حد ممكن في التنمية الاقتصادية في إقليمنا هذا، حتى إذا اقتضى الأمر إلى إبطاء سرعة التنمية إلى حد ما، ويضيف الكادر المحلي قائلا: إن الإخفاق في عدم القيام بذلك سينتج عنه شعور بعدم الرضى واتهامات جديدة حول الاستعمار الهاني (نسبة إلى الصينيين الهان).

إن هناك من يرى أن الموقف الصيني متناقض وغير ثابت فإذا حصل تراجع أو انسحاب في موقفهم هذا فإن المعدلات الاقتصادية المرتفعة في سنكيانج سوف تهبط من جديد، ومن جهة ثانية، إذا استمرت الصين على ما هي عليه، وصار إقليم سنكيانج المحطة الأخيرة لملايين جديدة من الهان قادمة من الداخل فإن الاستقرار المتولد عن الإصلاح والرخاء الاقتصادي سوف ينهار).

إن ارتفاع الوعي الاقتصادي وتوقعات المستقبل بين أبناء تركستان الشرقية -كما هو الحال في أي مكان- سيؤدي بالضرورة إلى ارتفاع الوعي السياسي وإلى مطالب وتطلعات جديدة، لهذا فإن الصينيين سيواجهون بمواقف غير مستقرة وغير ثابتة، وإن نجاحهم سيعتمد إلى حد كبير على قدرتهم على حل هذه المشكلات.

اتجاهات رسمية

عندما زرت المنطقة في أواخر عام 1986م وجدت أن معظم المسئولين الذين تحدثت معهم يتمتعون برؤية متفائلة وأكثر واقعية للعلاقات بين أبناء الجنسيات المختلفة في تركستان الشرقية، لقد انتهت - على سبيل المثال- شعارات الأسرة الواحدة وإخوة الرفاق، واستبدلت بالدعوة إلى (المساواة) التي تدعمها الدولة، ففي ظل هذه الدعوة الجديدة لا يلزم الفرد بالاختلاط مع أبناء الديانات والسلالات العرقية الأخرى، وليس مطلوبا منه حتى أن يحبهم، ولكن عليه أن يحترم حقوقهم وعاداتهم، ودعوة المساواة هذه لا تعدو أن تكون إقرار لما هو ممارس في وقاع الناس، إن مدن وبوادي تركستان الشرقية منفصلة عن بعضها إلى حد كبير ولهذا يسهل تميز أبناء (الهان) عن غيرهم في العزب والقرى، في الأسواق والمدارس وفي سائر المرافق العامة.

إن الزواج المختلط بين الهان وغيرهم نادر جدا، فلقد حدثني مدير مؤسسات البحث الاجتماعي الرائدة في سنكيانج عن آخر أبحاثه التي تشير إلى أن عمليات الزواج في أوساط كل مجموعة دينية أو عرقية محصورة على أبنائها فقط، وتشير إحدى الدراسات التي طبقت على 4700 شخص ينتمون لـ 1200 أسرة يعملون في مصنع كزحجار للمنسوجات أن الزواج المتبادل بين السلالات العرقية المختلفة لم يقع إلا في اثنتي عشرة حالة فقط، والجدير بالملاحظة أن لم تحصل ولا حالة واحدة من حالات الزواج المختلط هذه بين المسلمين وغيرهم، وأضاف مدير مؤسسات البحث الاجتماعي قائلًا: إن

المعارضة الشديدة للزواج المختلط لا تزال قائمة حتى يومنا في ثقافتي المسلمين والهان على حد سواء، وحتى لدى المثقفين والكوادر من الفئتين.

لقد قامت إحدى مؤسسات البحث الرفيعة المستوى بإجراء دراسة عن العلاقة بين الإنجاب والتراث الثقافي، وكانت النتيجة أن المسلمين ينجبون من 5-6 أطفال في المتوسط والمسلمون لا يزالون حتى تاريخنا هذا مستثنون من قوانين تحديد النسل التي تحدد الإنجاب عند أسر الهان بطفل واحد، لكن هذا الاستثناء ربما ينتهي في يوم من الأيام.

لقد تحدث عدد من المسئولين عن إمكانية توجيه قوانين تحديد النسل أو على الأقل تخطيط النسل إلى الأقليات في المستقبل القريب.

خطوات إيجابية

لقد بادرت السلطات الصينية باتخاذ خطوة إيجابية من جانبها وذلك بالطلب من الدول الإسلامية بأن تساعد في عمليات التنمية الاقتصادية في تركستان الشرقية، ولقد قامت تركيا بتوقيع اتفاقيات لبناء مصانع في الإقليم، وهنالك دول إسلامية أخرى لها مشاركة ملحوظة كالباكستان.

لقد غير الصينيون في الآونة الأخيرة من أسلوبهم في التعامل مع الإسلام والأديان الأخرى كطريقة للحد من التوترات التي قد تنشأ في أي مكان، لقد طحنت الثورة الثقافية التي قادها الرئيس ماو في سنة 1960م تركستان الشرقية طحنًا، وضيق فيها على الإسلام بصفة خاصة، فلقد نسفت المساجد وأحرقت كتب التراث الإسلامي وعذب العلماء وقتلوا وبالرغم من كل ذلك ظل الإسلام حيا في قلوب أبنائه.

الإسلام بين الأمس واليوم

إن الإسلام اليوم يعود إلى تركستان الشرقية بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل، وربما يكون هذا راجعًا بالدرجة الأولى إلى شدة تمسك المسلمين المحليين بدينهم وثقافتهم، وثانيا إلى إدراك الصينيين بأن التضييق على الإسلام سيعطل كل برامج التنمية، والأكثر من هذا وذاك أن مثل هذا الأمر سيؤدي إلى تفاقم الحساسيات الشديدة في أهم إقليم حدودي.

في سنة 1980م كان الإسلام في بداية ظهوره في هذا الإقليم بعد المعاناة الطويلة، أما في سنة 1986م فقد كانت هناك شواهد ودلالات واضحة لصحوة إسلامية غامرة، فعلى سبيل المثال، كان عدد المساجد العاملة في ولاية كاشغر عام 1980م لا يزيد على عدد أصابع اليد بينما ارتفع عددها في سنة 1986م ليصل إلى 6000 مسجد، الشعائر الإسلامية صارت تمارس بكل وضوح في المساجد والمنازل وفي بعض المدارس الخاصة، كما سمح بتحصيل الزكاة لينفق منها على المدارس الإسلامية وإنشاء مساجد جديدة ورعاية الفقراء، لقد أنشئت العديد من المدارس القرآنية بما فيها مدرسة في يارقند -كانت عند زيارتي- تعد الأئمة لأربعة وستين قرية، وقد خطط لإنشاء كلية إسلامية في أورومجي تشتمل على دراسات إسلامية وفنية، ومن ناحية أخرى، فلقد ازداد عدد الطلبة المسلمين الذي يرسلون إلى الخارج للدراسة في كل من باكستان وتركيا ومصر، كما أن دراسة اللغة العربية صار الآن متيسرة لدى العلماء وعلى مستوى الدراسات الجامعية في أورمجي، وكتب الثقافة الإسلامية صارت متوفرة ورخيصة كذلك، وهنا ينبغي الإشارة إلى أنشطة الجمعية الإسلامية في بيكين التي تسهم في الكثير من أوجه الحياة الإسلامية في كل أرجاء الصين، ربما في ذلك نشر الكتب الإسلامية إذ إن هذه الجمعية تقوم بإنتاج أصول الثقافة الإسلامية كالقرآن والحديث والسيرة النبوية.

الطريق مليء بالمآزق

إن الوقت ما يزال مبكرًا للحكم الدقيق على نجاحات أو فشل التغيرات في تركستان الشرقية، ومن الأحكام التي يميل المرء نحوها، هي التي تتعلق بقضايا حساسة كالنشاط الاقتصادي والحريات الدينية الممنوحة للمسلمين، إذ إن أي تراجع في هذا المضمار سوف تدفع الصين ثمنه غاليًا، وهذا يشمل أيضا أي فشل أو إخفاق من جانبهم - أي الصينيين- لتحقيق المستوى العام للتوقعات المتزايدة، وبهذا فإن طريق المستقبل مليء بالعقبات والمآزق.

إن إحدى المعارك الرئيسية في السنوات القادمة ستكون في الميدان الفكري، ففي الوقت الذي يحاول فيه أبناء تركستان الشرقية تكييف أنفسهم للأوضاع الجديدة، فإنهم سيحاولون إعادة تعريف وتحديد تراثهم في ضوء الأحداث التي تحيط بهم، كما سيحاولون صياغة وتشكيل التحولات التي تمر بهم في إطار ثقافي مألوف ومقبول.

لقد بدأ بالفعل الحوار حول الآثار التاريخية لحضارة المسلمين الأتراك، وعلى وجه الخصوص جوانب تفاعلها مع الحضارة الصينية، إن مثل هذه الحوارات مهمة جدا بل إنها يمكن أن تكون قاسية.

لقد كثر الحديث عن الاستقلال إلا أنه من الواضح أن مثل هذا الاستقلال سيقتصر على ميادين محددة كالنشاط الاقتصادي الفردي، إذ يبدو أنه لا توجد أدنى رغبة لدى السلطات الصينية للأخذ في الاعتبار حاجة الناس أو رغبتهم في استقلال سياسي واسع قائم على أسس عرقية أو دينية، إن السلطات الصينية بتخفيفها القيود على النشاط الاقتصادي الفردي والممارسات الدينية لدى مسلمي تركستان الشرقية، إنما تهدف بهذا إلى تقليل المطالبة بحريات سياسية واسعة وذلك بتقديمها بدائل جاهزة.

مجلة (الإرشاد)

محرم 1408هـ (1987م)